

# الفردوس المفقود يكون ملتون

بقلم  
الدكتور نظمي لوقا

وصاياهم واتفاقاتهم .. وكان في بعض الأحيان يخرج موكله من ضائقتهم المالية باقراضهم المال بفائدة معقولة .

وفي يوم قارس البرد صرصر الريح يتداول سماءه هزيم الرعد ووميض البرق . في التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨ وجد جون ملتون - رب ذلك البيت ومحرم العقود ووكيل الأعمال القضائية ومفرج الكروب بالربا المعقول - ان من العسير عليه مواصلة عمله المعتاد ، وهو المكب الدءوب ، فقلبه كان يرقص طربا حتى ليكاد يكفه عن التعبير والتحرير لينطلق بالشدة الذي يسقط الهيبة ويزيل الوقار ! .. فمنذ ساعات قلائل - في الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم على وجه الدقة - صار أبا لغلام صغير جميل . وقال جون ملتون لنفسه « ليكون هذا الغلام جونا آخر .. سميا لى » . وهكذا أطلق على الوليد اسم جون ملتون عندما تم تعميده في الكنيسة القريبة من الدار ، وهي كنيسة «أول هالوز» . ومثلما منح كاتب الاشغال القضائية ابنه جون

## ١ - حياته

منذ ثلاثة قرون ونصف لم تكن البيوت في مدينة لندن العظيمة تحمل أرقاما ، بل كان الناس يميزون بعضها عن بعض بتمثال صغير أو شكل منحوت أو صورة زاهية الألوان ترمز الى مهنة قاطن البيت أو الحرفة التي يمارسها فيه . فقد كانت العادة المرعية حينئذ أن يتخذ الناس مساكنهم وحجرات معيشتهم البيئية الخاصة في الطبقات العليا من المنازل ، فوق حوائطهم ومتاجرهم ومكاتبهم التي تمثل الطبقة الأرضية من المبنى . وكانت لندن محدودة الحجم حيث قلب المدينة الآن . اما ما يعرف اليوم بضواحي لندن السكنية فلم تكن في ذلك الحين الا ريفاً مترامياً بالحقول والمراعي .

وفي بيت من بيوت لندن ، وفي شارع برید (أى شارع الخبز) كان المارة يرون على الواجهة نورا مبسوط الجناحين ، وهو شعار أسرة قاطنه الذي يحترف كتابة العقود الرسمية والوثائق القضائية . فهو وكيل أعمال قانونية يحرر للناس

أن نصل الى بعض ما كتب لهذا الوليد من مكانة رافعة في عالم الشعر على اطلاقه ، وفي آداب العالم أجمع على اختلاف اللغات وتباين العصور .  
ومهما يكن من شيء فقد قرر ذلك الوالد أن يقدم في شأن ابنه على أمرين : أولهما أن يتيح لابنه جون تعليما متينا وأن ينشئه على تعاليم المتطهرين (اليوريتان) وهى العقيدة البروتستانتية الخاصة التى آثرها وكيل الاشغال القضائية بالانتماء اليها .

وفي السن المناسبة - وهى سن مبكرة - ارسل جون ملتون الى مدرسة القديس بولس التى أنشأها الدكتور جون كوليت فى سنة ١٥٠٩ وصار يشرف عليها فى ذلك العهد الكسندر جيل وله شهرة واسعة بين ابناء جيله ، ذلك انه من احسن نظار المدارس ومن أكثرهم استخداما للعصا وسيلة للتهذيب والتعليم . وكان الفتى الصغير جون لا يكاد ينتهى من تلقى علومه سحابة النهار فى تلك المدرسة حتى يجد بانتظاره فى البيت مؤدبا خاصا يلقيه مزيدا من الدروس والمعلومات .

ويخبرنا الشاعر العظيم فيما تركه من أقوال وكتابات « اننى كنت منذ سنواتى الأولى بفضل عناية ابنى وهمته التى لا تعرف التوقف أو الابطاء (جزاه الله عليها خير الجزاء ! ) دائم الاطلاع على اللغات وبعض العلوم التى تسمح بها سنى ، وذلك كله على يد أساتذة ومؤدبين عديدين سواء فى البيت أو فى مقاعد الدرس فى المدارس » ثم يقول فى موضع آخر :

« لقد وجهنى أبى منذ حداثة صباى الباكرة الى دراسة الآداب الانسانية التى كنت استوعبها بلهفة عظيمة ، حتى لقد كنت منذ بلغت الثانية عشرة لا أترك دروسى لأوى الى فراشى قبل انتصاف

اسمه منحه أيضا - أو منحه الطبيعة وأفانين الوراثة الغامضة - جانبا لا يستهان به من طبعه . فجون ملتون الكبير - والد الشاعر - سمح لنفسه أن يخالف أباه فى بعض مسائل العقيدة ، حتى لقد تعرض فى هذا السبيل لسخط ذلك الأب الى حد اعلان براءته منه حتى نهاية حياته ، من غير أن يلين أى منهما عن موقفه العنيد ، مما يدل على الصلابة واستقلال الرأى فى هذه الأرومة . واستقلال الرأى ، والحفاظ الشديد على هذا الاستقلال والاعتداد به سمات بارزة غاية البروز فى شاعرنا جون ملتون ، ولا شك فى انها موروثه عن ذلك الوالد .

وكان جون الأكبر - والد الشاعر - قد أثرى وجمع مالا يعتد بقدره فى زمنه . وكان يتحرى فى سلوكه أوامر ضميره ونواحيه ، ويصدر عن وجدان مؤمن بما يصنع ، ويستمد من علمه ومعرفته وقودا صالحا لطاقته ، فجعل يكدح فى عمله بأمانة واجتهاد منذ بكرة الصباح الى ساعة متأخرة ، لا يأخذ فى عمل حتى يتمه على أكمل وجه . فلما أنعم الله عليه بولادة ابنه وجد من حقه وسط نصيب العمل الشاق أن يضع القلم من يده قليلا ويخلد الى التفكير محملا فى النار يطالع فيها صورا من صنع الأحلام ، عسى أن يرى فيها وليده وسميه وقد بلغ مبلغ الرجال ! ولعله حرى أن يقتفى خطوات أبيه وكيل أشغال قضائية ومقرض نقود بالربا المعقول ، وقورا مبجلا بين رجال الأعمال وأرباب الحرف والمهن . أو لعل موهبة أبيه المحدودة فى نظم الهازيج والمقطعات الشعرية تنمو لديه فتصبح ملكة مزدهرة تؤتى أكلها من أطايب القريض . ولكننا لا نخال تصورات أبيه وأحلامه فى ذلك اليوم بالغة ما بلغت من الجموح والاسراف يمكن

الليل . وكان ذلك في الواقع أول سبب من أسباب  
أيذاء حاسة البصر ، فبدأت تتناوب فوق متاعب  
ضعف عيني الطبيعي آلام الصداق المتلاحقة » .

وفي سن الخامسة عشرة نظم ملتون ترنيمة  
استقى مادتها من المزمور ١٣٦ أصبح ترتيلها شائعا  
حتى اليوم في كنائس المتطهرين خاصة والبروتستانت  
الانجليز بصفة عامة . وفي سن السادسة عشرة دخل  
جون ملتون كلية المسيح في جامعة كمبريدج وهناك  
أطلق عليه زملاؤه من طلاب الجامعة لقب « سيدة  
كلية المسيح » لما اشتهر به من رقة البشرة وطول  
الشعر الضارب بلونه الى حمرة النحاس ، وهو  
ذلك اللون الذي يسميه العرب « اللون الأصحر »  
وفي كلية المسيح ظل جون ملتون يعمل بدأب  
على مدى سبع سنين .

وبعد أن حصل الطالب النابغ على درجة  
البكالوريوس ودرجة الاستاذية ( الماجستير ) في  
الآداب غادر جامعة كمبريدج ورحل الى قرية هورتون  
في اقليم كنجه مشاير ، وهي القرية التي كان والده  
اقد اعتزل عمله وتقاعد فيها . وكان رأى جون ملتون  
قد استقر بعد تخرجه على أن يفرغ للشعر .

والواقع انه كان قبل مغادرته ، كمبريدج قد  
كتب قصيدته الجميلة التي عنوانها : « صبيحة يوم  
ميلاد المسيح » وقد كتب في ذلك الحين الى صديق  
له ردا على رسالة قائلا : أراك تكثر من السؤال  
عما اشغل به نفسي ، وعما أفكر فيه ؟ واني بعون  
الله تعالى مشغول الفكر بالخلود . واغفر لي هذه  
الكلمة ، فان هي الا همسة ألقى بها في مسامعك .

أجل أعلم اني أهنيء جناحي للتخليق !

واستهواه هدوء حياة الريف ، فجعل من نفسه  
وفكره مستقرا لجميع الصور الجميلة والأصوات  
العذبة والأنغام الشجية .. وانصرف الى كتابة

القصائد والمسرحيات الشعرية ، وأشهرها « كوموس  
وهي تمثيلية من نوع مسرح الأقنعة - وهو نوع  
كان مرغوبا جدا في تلك الأيام - كتبها لصديقه  
هنري لاوس الذي كان يعتبر أبرز المؤلفين الموسيقيين  
والملحنين بانجلترا في زمنه ، وقد تولى وضع  
الموسيقى لكلمات تلك القطعة الأدبية .

وقد بلغ من حب وكيل الأشغال القضائية  
المتقاعد بعد أن أثرى أنه منح ابنه البكر « مبلغا  
كافيا من المال في سنة ١٦٣٨ ( أى عندما بلغ الثلاثين  
من عمره ) ليقوم بجولة سياحية في أرجاء القارة  
الأوربية ، بالإضافة الى اجر ونفقات خادم في سن  
الرجولة صحبه في هذه الجولة الطويلة الباهظة  
التكاليف ليقوم بشئونه . وليس عجيبا على الاطلاق  
أن تصبو نفس شاعرنا الى الطواف بالأمم ولا سيما  
ايطاليا ذات الشمس الدافئة ، فهو قد عل ونهل  
من اللغات القديمة ولا سيما اللاتينية جرعات  
كبيرة على حد تعبيره ، وكان أدب دانتى وبترارك  
وغيرهما من فحول أدباء الطليان زاد مائدة حافلة  
أصاب منها كل جنى وشهى ومستطاب . وفي ايطاليا  
على الخصوص أطال المكث والتلبث مستأنيا متأملا .  
وعد مدائننا القديمة المعمورة بآيات الفن واعلام  
الفكر وكنوز الثقافة القديمة والحديثة حطت رواحله  
ولا سيما في رحاب جنوه ولجهورن وبيزا وفلورنسا  
وروما والبندقية وميلانو . وفي « أرشترى » قرب  
فلورنسا حظى بالتحديث الى فلكيها المشهور  
« جاليليو » الذي كان يعيش هناك يومئذ رهين  
محبسين من عزلة الشيخوخة وآفة العمى مستكينا  
الى الهدوء بعد طول نضال مع اعداء حرية العقل  
وحرية التجربة العلمية . وياله من موقف من مقارنات  
القدر ، أن يقف جون ملتون الشاب الناضر الجمال  
والوسامة الجميل العينين خاشعا أسيفا على

بنظم قصيدته المشهورة « ادونائس » فى رثاء جون كيتس ، كما اقتفى أثره لورد تينسون فى قصيدته « الذكرى » تمجيذا لذكرى « آرثر هالام ».

\*\*\*

وكان والد ملتون قد نقل مقره الى «ريدنج» وعاش الشاعر بعد عودته فترة من الزمن بالقرب من كنيسة « سانت برايد » وعن كُتب من شارع « فليت » - الذى أضحي اليوم شارع الصحافة فى لندن - وقضى بعض وقته فى تعليم ابنى أخته التى تزلت . ومن هنا انتقل الى بيت فى «الدرزجيت ستريت» له حديقة وفيه عدد كبير من الحجرات ومتسع لكتبه الحبيبة اليه ويتوفر له جوار ساكن هادئ . والى هذا البيت أتى بزوجه الأولى « مارى باول » وهى بنية فى السابعة عشرة . ووالدها رتشارد باول من الملكيين المتعصين !

وبدأ ملتون حربه بالكتيبات فى سنة ١٦٤١ ولم يختمها الا فى سنة ١٦٦٠ ، ولم يكن له من موضوع فيها جميعها الا الحرية على اختلاف أنواعها . فدافع عن الحرية الدينية ، وعن حرية التعليم ، وعن الحرية المدنية ، وعن الحرية المنزلية وعن حرية الصحافة والنشر عموما . وقد طبع جانب من هذه الكتيبات والنشرات غفلا من اسم مؤلفها . ولعل أشهر هذه الكتيبات الخمسة والعشرين «خطبة للمستتر جون ملتون فى الدفاع عن حرية الطبع بدون ترخيص ، مقدمة الى برلمان انجلترا» . وهذا هو العنوان الفرعى للكتيب ، أما العنوان الأسمى فهو « أريوباجيتيكا » نسبة الى « أريوباجوس » المحكمة العليا التى كانت تعقد بأثينا قديما فى الهواء الطلق وكانت أحكامها نهائية لا تقبل النقض وسبب هذه النشرة أو الخطبة المطبوعة أن قرارا

شيخوخة العالم المصاب فى بصره وهو الفلكى الذى صحح للناس معطيات أبصارهم وقوم لهم خداعها فى أمر دوران الشمس حول الأرض كما كانوا يزعمون ... وهو لا يدرى أن الغد يدخر له مثل هذه الضربة فى ظهر الغيب بأخرة من عمره بعد نضال شبيه بذلك النضال فى حومة السياسة والفكر .

وفيما هو بمدينة نابولى وصلته الأنباء من وطنه انجلترا أن استبداد حكومة الملك شارل الأول يجبر البلاد الى الثورة العلية ، وهو يقول لنا بلسانه : « ان الانباء الأسيفة عن وشك نشوب الحرب الأهلية فى انجلترا دعتنى للعودة الى بلادى ، لأنى وجدت من الحقارة أن أطوف بأفاق الدنيا خارج الحدود ووراء البحار طلبا للمتعة الذهنية والثقافة فى حين يقاتل ابناء وطنى ويسفكون دمهم فى المعارك على أرض بلادى دفاعا عن الحرية والتماسا لأسبابها ! »

واننا لنجد فى هذه العبارة الموجزة وجها جديدا لجون ملتون الذى كان حتى ذلك الحين عاشق فن وادب ورجل خيال ، فاذا به يتكشف عن رجل عمل ونضال ، ولم يلبث أن شد رحاله عائدا الى انجلترا .. ولكن مامن شئ ينم على أنه فكر لحظة واحدة فى امتشاق حسامه فى صفوف كرومويل وجيش البرلمان ضد الملك والملكية ، فالقلم دائما كان سلاحه . وعندما سنحت له الفرصة انبرى بذلك السلاح العضب فى يده فكان أفعل من السنان عند احتدام الطعان .

وفى طريق عودته الى انجلترا نظم ملتون قصيدته فى تمجيد ذكرى صديقه « تشالز ديوداتى » الذى وافته المنية أثناء رحلة ملتون فى بلاد القارة الأوربية . وقد اقتفى شيلي أثر ملتون

وكانت الصفحة الأولى من المجلد عبارة عن صورة للمؤلف الشاعر وهو فى سن الحادية والعشرين . وبعد ذلك بأربع سنين انضم جون ملتون صراحة الى صفوف من اصدروا أمرهم بقطع رأس الملك باصدار كتابه « ايكونوكلاستس » فى الرد على أنصار شارل الأول ، وكتابته « حقيقة الأمر فى حقوق الملوك والحكام » . وقد بلغ من شدة الاقبال على طلب الكتاب الأول انه طبع خمس عشرة طبعة فى غضون اثنى عشر شهرا ، وامسى من أشهر الكتب فى العالم يومئذ .

وفى سنة ١٦٤٩ عين مؤلف هذه الكتب والنشرات السياسية النزالية سكرتيرا لاتينيا لمجلس الشئون الخارجية ، وكانت اللغة اللاتينية هى اللغة الدولية الدبلوماسية كالفرنسية والانجليزية فى أيامنا هذه . فكان هو الذى يتولى ترجمة الوثائق والمذكرات الدبلوماسية من الانجليزية الى اللاتينية ومن اللاتينية الى الانجليزية .

وكان ملتون فى هذه السنين قد تنقل فى مساكن شتى الى أن استقر فى شارع الدوق بوستمنستر ، وهناك كتب رسالة سياسية عنوانها « دفاع عن الشعب الانجليزى » فى سنة ١٦٥٠ ، وهو رد عنيف ساحق على كتيب من تأليف عالم فرنسى مرموق اسمه « سلاما سيوس » دفاعا عن سياسة الملك شارل الأول بطلب من الأمير الذى أضحي فيما بعد ملكا على انجلترا باسم شارل الثانى . وقد كتب ملتون دفاعه بتكليف رسمى من «مجلس الدولة» وهو مايقابل مجلس الرياسة أو مجلس الوزراء . والحق أن لغة « الدفاع » كانت عنيفة حافلة بالمطاعن الشخصية والسباب ، بيد أن حقوق الشعوب عموما لم تظهر بأجلى من هذا البيان وأقوى من هذه الحجة .

صدر من البرلمان فى سنة ١٦٤٤ يجرم على أى شخص أن ينشر كتابا أو كتيباً أو نشرة أو صحيفة ما لم يكن قد صدر له بنشرها ترخيص سابق . وفى دفاع ملتون الحار القوى عن حرية الطبع والنشر والفكر يقول بحق : « ما أكثر من يعيشون من البشر عالة وعبثا وكلا على الأرض . أما الكتاب الجيد فعصارة دماء الحياة التى تجرى فى فكر فذ وروح نابغ ، وقد حنطت هذه العصارة واختزنت ذخرا للناس ، ولكى تكون لهم بها حياة تتجاوز آفاق الحياة » . وقد صدر هذا الكتيب بدون ترخيص ، ولم يسجل رسميا فى ديوان المطبوعات ولم يحمل اسم طابعه أو ناشره ، بل اسم مؤلفه الذى تصدى لحمل المسئولية مفردا .. وقد نشر كتيبه عن حرية التربية والتعليم فى سنة ١٦٤٤ أيضا .

ولم يكن جون ملتون راضيا عن أعماله النثرية هذه كل الرضا ، بل كان يقول فى التعليق على ذلك : « انى لا أستخدم بكتابتها سوى يدي اليسرى ! » أما يده اليمنى فللشعر دون سواء ، ميدانه الأثير الذى لا يعدل به شيئا . ولم تكن يمناه مشلولة ولا معطوبة مثوفة فى تلك الفترة النثرية من حياته حاشا . بل هى كالفرند الصقيل المذخور فى قرابه الى حين . وكانت يمناه التى تملك ناصية القريض تستجيم الى يوم موعود تتألق فيه آياتها كالنجوم الدرارى .

وفى سنة ١٦٤٥ - وهى السنة التى منى فيها الملك شارل الأول بهزيمة الساحقة فى « نيزبى » صدر مجلد عنوانه : « اشعار من نظم مستر جون ملتون بالانجليزية واللاتينية تم نظمها فى أوقات شتى » . وطبعت فى هذه المجموعة أعمال شبابه الشعرية ومنها « الليجرو » و « بنسيزوزو »

عميم - وأنا موزع الأوقات بين الاستجمام والدرس وأصوات التحيات المنبعثة من الأصدقاء من حولى . ولئن كان قد كتب أنه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الرب » فما الذى يمنعنى من الاطمئنان كذلك الى أن بصر الانسان ليس فى باصريه فقط ، بل فى هداية الله وعنايته ، وان فى هذين الكفاية والغناء له عن عينيه ؟ الحق أقول انه مادام الرب ينظر لى ويتعهدنى كما يتعهدنى الآن بالهداية والارشاد ، ويقودنى بيده العلية قدما على امتداد العمر ، فانى عن طيب خاطر - مادامت هذه مشيئته - انزل عن مقلتى وامنحهما عطلتهما الكبرى .. »

وبصبر عظيم ظل ملتون يكدح وينصب رغم الآفة القاسية واضطراب حياته البيتية : فقد كان زواجه الأول عاثر الجد ، ولم تفهمه بنت السابعة عشرة التى بنى بها وهو فوق الثلاثين ، ولكنه فى سنة ١٦٥٦ - أى بعد عماه بأربع سنين - تزوج امرأة يصفها بأنها قديسة ، وبعد خمسة عشر شهرا قصيرة من السعادة والهناء نزعها الأقدار منه وتركته وحيدا محزوننا حقا . ومع أن له ثلاث بنات من زوجته الأولى كن يقدمن له العون مااستطعن الا انهن عجزن عن فهم مزاج والدهن الخاص ، ويبدو أنهن كن كوالدتهن عاميات الذوق والعقل، فكن له نعمة تخالطها النعمة والتنغيص .

وفى سنة ١٦٥٨ مات بطل ملتون القومى .. مات اوليفر كرومويل . وكان قد شرع فى هذه السنة عينها ينظم ملحمة الكبرى : « الفردوس المفقود » بيد أن ملتون ظل محتفظا بمنصب « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية » الى أن صار فى حكم المقرر نهائيا عودة الملكية .

ولا مرأ فى أن انكبابه الشديد على أداء واجبه الرسمى والوطنى فى معركة الحرية الدينية والسياسية والفكرية قد عجل باتتهاء ضعف بصره الى فقدان هذه الحاسة كل فقدان . ونراه يسجل ذلك فى دفاعه الثانى عن الشعب الانجليزى قائلا : « لقد خيرت بين نهوضى بواجب أسمى وبين فقدان حاسة البصر . ووجدتني عاجزا عن الاصاخة لنصح الطبيب ، وحتى ولو كان النصح موجها من لدن ايسكولابيوس « ابنى الطب » متحدثا الى من قدس أقداسه ! فليس يسعنى الا أن أصدع بأمر وجدانى الداخلى الذى تحدث الى بما تدعونى اليه السماء . فقررت أن استخدم القليل الذى بقى لى من بصرى فى تأدية أعظم خدمة فى مقدورى تأديتها لأمتى .

وفى منتصف سنة ١٦٥٢ - وقد بلغ شاعرنا الرابعة والأربعين من عمره - أصيب بالعمى التام، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد فى مقدوره أن يعمل الا بمعونة سواه . وقد ظل مع هذا يقوم بواجباته الرسمية . ومن حسن حظ دارسى ترجمة حياته أن هناك خطابا بديعا كان قد ارسله الى صديقه ليونارد فيلاراس الذى كان قد وعده بالتوجه الى « تيفينو » طبيب العيون الفرنسى الكبير بالاستفسار عن مدى امكان شفاء الشاعر من عاهته . وفى هذا الخطاب لانجد ملتون ثائرا ساخطا يلعن الأقدار التى رمت به هذه الآفة القاسية ، بل نلفيه مذعنا فى هدوء وفكاهة حسنة لذلك الظلام الأبدى فى ايمان وجلد :

« أيا كان أمر شعاع الأمل الذى قد يكون مدخرا لى عند طبيبك الشهير ، فانى قد وطنت نفسى على أن حالتى لا شفاء منها وتأهبت للحياة على هذا الأساس .. وقد وجدت الظلام الذى يكتنفنى أيسر على نفسى محملا - بكرم من الله وفضل

فلما كان الخريف التالى شرع فى صمت ينظم ملحمة الثانية « الفردوس المستعاد » وفيها يتحدث عن انتصار المسيح على الغواية .

ولم ينشر « الفردوس المفقود » الا فى سنة ١٦٦٧ ، ولم يدر عليه هذا المجلد من الشعر الثمين الفخم الا أقل القليل : لا أكثر من ستين جنيتها ! وفى سنة ١٦٧١ نشر « الفردوس المستعاد » و« شمشون الجبار » فى مجلد واحد ، وكان ملتون قد عاد الى الإقامة بلندن المعتمدة الكثيرة الضباب بعد انتهاء الوباء وبعد حريقها الكبير فى سنة ١٦٦٦ ، وظل مقيما بها الى أن وافته منيته فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٦٧٤ عن سبع وستين سنة تقريبا .

وقد ظل جون ملتون حتى نهاية حياته ينهض من فراشه فى الساعة الرابعة صباحا فى فصل الصيف ، وفى الساعة الخامسة صباحا فى وقت الشتاء .. ويأوى الى الفراش بانتظام فى الساعة التاسعة ، ويبدأ يومه بالاستماع الى فصل من الكتاب المقدس يتلى عليه ، ويختتمه بتدخين غليونه منفردا بنفسه . وفيما بين هذين الوقتين يفكر ويصمم أعماله ويمليها ويراجعها وينقحها فى فترات متقطعة صدر النهار ، وفى المساء يسمر مع صديقه الوود أو « أندرو مارفل » الذى كان يعاونه فى عمله عندما كان « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية » وكثيرا ما كان يلتمس الترفيه والتسرية بالاصغاء لأنغام الأرغن أو الباص ، لأن استجابته للموسيقى كانت عظيمة جدا .

وكانت نظراته الى الحياة دقيقة مرهفة صارمة كالنغم الموسيقى المضبوط . كان شعاره أن « من يسيطر على نفسه ويتحكم فى انفعالاته وشهواته ومخاوفه أحظى من أى ملك على الأرض وأقوى

وقد قبض على ذلك المناضل السياسى الخطير بقلبه ولسانه ، ولكن يبدو أن الحقد الملكى عليه لم يكن بعيد الجذور فسرعان ما صدر العفو عنه ، وانتقل ملتون الى شارع « جوين » وهناك تزوج للمرة الثالثة . وتنقل بعدها فى بيتين ، ولما حل « الطاعون الكبير » فى سنة ١٦٦٥ واجتاح مدينة لندن هجرها بين من ولوا الادبار من المدينة المنكوبة ، وأقام فى كوخ بمقاطعة بكنجهام بقرية « تشالفونت سانت جايلز » ( وقد اشترته الأمة تخليدا لآثاره فى سنة ١٨٨٧ ) وكانت تسمى فى ذلك الحين « جايلز تشالفونت » . وقد اختاره وأعد له لاقامته صديق شاب أديب من جماعة المهترئين ( الكويكر ) اسمه « توماس الوود » . وفى ذلك الكوخ ، وفى حجرة صغيرة منخفضة السقف تغمرها أشعة الشمس التى لا يستطيع أن يراها أتم جون ملتون اللسعات الأخيرة فى « الفردوس المفقود » تلك التحفة الفذة التى تعتبر من أعظم آيات التصوير اللفظى ، نظمها بالشعر المرسل حول سقوط آدم وحواء وحرمانهما من فحمة الرب وما ترتب على ذلك من نتائج فقدانها الجنة .

وكان الصديق توماس الوود يتردد على الشاعر لقرب مسكنيهما فى الريف ويطالع له فى أعمال هومر باللغة الاغريقية ، ويسجل التعليقات التى ينقوه بها ملتون ، وذات يوم طلب اليه الشاعر أن يتصفح مخطوط « الفردوس المفقود » ليبنى رأى فيه ، وعندما أعادها الشاب اليه وهومتون بما قرأ قال له : « انك ياسيدى قلت الكثير عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك قائلا عن الفردوس المستعاد ؟ » . ولم يرد الشاعر عليه بغير الصمت ، وتجاهل سؤاله .

الفن القديم وحرارة الانفعال أو الوجدان الخلقى  
الصميم الحميم على نحو ما يترأى فى الكتاب  
المقدس بعهديه الجديد والقديم . ففى قلبه الكبير  
نشب الصراع محتدما بين عبادة الطبيعة كما عاشها  
الوثنى وبين التدين الروحى كما عرفته المسيحية  
المتنطسة . ومن امتزاج هذين النغمين العميقين قدم  
لنا ملتون معزوفاته اللغزية الرائعة . وقد تفاوت  
نسب هذا الامتزاج الثنائى على حسب سنوات  
عمر ملتون ومراحل حياته الفنية ، الا أن الامتزاج  
موجود دائما . وما من شاعر سواه فى الأدب  
الانجليزى كان عميق التدين الى هذا الحد الكبير  
وعظيم الحظ من روح الفنان فى آن واحد .

ولعل أهم أعمال شبابه قصيدته عن صبيحة  
ميلاد السيد المسيح ، وهى من أعذب الشعر وأغناه  
بالموسيقى ، ثم أوبراه على طريقة الأقنعة المسماة  
« كوموس » وموضوعها أخلاقى فى المقام الأول  
وكل مقومات العمل الدرامى فيها مجمدة أو مكبوتة  
بحيث تظل الشخصيات عبارة عن فضائل مجردة  
وأصوات ناطقة بوجهات النظر وليس لها كيان من  
لحم ودم... وكل ما فيها من الشعر لا يخاطب الا الأذن  
والذهن ، ولا يكاد يحرك المشاعر فيما عدا ذلك  
المشهد الذى تدخل فيه الفتاة الغابة وتنادى أخوتها  
فى أغنيتهما الموجهة الى « الصدى العذب ».. ولكن  
القارئ لذلك الشعر المترف الذهنى لا يتمالك  
نفسه من الإعجاب الشديد بتلك التريمة المتعددة  
الأصوات والمتغنية بالفضيلة فى أرقى نظم موسيقى  
النبرات . فهو شعر للقراءة لا للاستماع فى ملاعب  
التمثيل لفقر البنى الدرامى أولا وعدم اتصال  
الشعر بالقلب مباشرة ، وانما هو متنزه ومراض  
للعقل يرجع فيه النظر ويتملاه مستأنيا ومستمتعا  
بجمال الأسلوب الشفوف كالبلور ، تلك الشفافية

سلطانا « وقل بين البشر من كانت حياته صورة  
مطابقة لفلسفته ومبدئ كجون ملتون فى تعلقه  
بالجمال وشدته على نفسه وسيطرته على زمامها  
وتجلده الأدبى لطوارق الحدثان التى كأنما احنقها  
تخديه وجبرته فتعمدته بالامتحان العسير ، فكان  
لها الكفاء الكريم والقرن الفصل الذى لا يجده  
له أنف !

## ٢ - أدبه

ولئن كان جون ملتون الشاعر الوحيد الذى  
آمن بالتطهر ( البيوريتانية ) ايمانا حقيقيا وعمليا ،  
فقد كان فى الوقت عينه ذا شخصية قوية جدا  
بحيث لا يجوز أن نعتبره فى المقام الأول مثلال تلك  
العقيدة ، وانما هو يمثل نفسه وطبيعته الخاصة  
الفذة قبل كل شئ . فجون ملتون أعظم من جيله  
كله بحيث لا يمكن ادماجه فيه ولا فى أى وجهة  
محددة من أوجه نشاطه ، فهو شخصية فذة قائمة  
بذاتها لا تنضوى تحت أى شعار أو عنوان أو مقولة  
فى عصره كله ، وتأثره ودينه لأسلافه جد قليل  
فى نهاية كل حساب ، حتى ازاء من أعلن صراحة  
اعترافه بفضلهم عليه ، وهم على الأخص سبنسر  
وجونسون وشيكسبير .. ثم ان له ميدانه الأوحده  
على اختلاف افانين أدبه ، ألا وهو ميدان المشكلة  
الخلقية كما تترأى لعقله ووجدانه . وليس كذلك  
شكسبير بتعدد آفاقه الذى يكاد لا يحيط به  
الحصر . وانه لمهف الأذن للايقاع الموسيقى  
المنساب فى وقار وجلال ، وليس كذلك شعر  
جونسون بخشوته النثرية وموسيقاه الوعرة ..

لقد كان ملتون يكتب لروح واحدة يعنيه  
أمرها وخلصها ، تلك الروح روحه شخصيا . فكان  
أول شاعر ينشئ عملا فنيا روحيا يجمع بين كمال



التي يدرك النظر المتأمل انها جاءت نتيجة مراجعات  
وتشذيب وتصفية متكررة لم تبق بعدها الا  
الخلاصة النقية من كل شائبة وكأنها موسيقى  
خالصة في مقاطعها الرنانة ، سواء في ذلك المواضع  
المرسلة والمقفاة .

ولم يكن قد انقضى على ظهور مسرحية  
« العاصفة » لوليم شكسبير أكثر من عشرين سنة  
عندما ظهرت في الوجود أوبرا الأقنعة « كوموس »  
لجون ملتون ، ولكن الفارق المعنوي يبدو هائلا  
بالنسبة لهذه الفترة الوجيزة اذا نحن قارنا شخصية  
« أرييل » الشيكسبيرية بشخصية « الروح  
الحارس » الملتونية ، فذلك الجنى الذى كان  
يتدمر تحت نير الانسان قد أدخل مكانه لملك ذى  
رسالة خلقية يدرك غايته ولا يمكن أن يجيد به  
شئ دون تمامها . وكلا الروحين يغادر العالم  
بعد الفراغ من مهمته بيد أن الملك الملتونى يصعد  
الى السماء وسط رؤى ميثولوجية ذات مغزى  
خلقى وعلى لسانه كلماته الأخيرة عن جمال العفة ،  
في حين ينطلق الروح الشكسبيرى لا ئذا بالقرار  
كانه الفراشة الهائمة ...

وثمة عبرة أخرى نخرج بها من هذه المقارنة  
بين الشاعرين العملاقين فى هذين العملين وغيرهما  
من الأعمال أيضا . ففي حين يندمج شيكسبير فى  
مخلوقاته الفنية فلا نراه ، نجد ملتون فى حقيقة  
الأمر الكائن الوحيد الحي بمعنى الكلمة فى جميع  
أعماله الفنية . فبطلته فى كوموس هى ملتون  
بعينه ، وعلى لسانها ينطق ملتون بكل كلمة من  
كلمات القصيدة ويترجم عن تجاربه النفسية من  
خلال تجاربها ، ويمر عن فتنة الحواس وغوايتها  
التي عرفها وامتنح بمقاومتها فى شبابه .. والمستوى  
الخلقى فى « كوموس » هو مستوى أخلاق ملتون

بغير زيادة ولا نقصان . مستوى رفيع متعال متوحد  
.. والفضيلة فى هذا المستوى متباعدة عن بنى  
البشر متساوية فوقهم - فضيلة واثقة بذاتهم معتدة  
بمراسها تتجاهل سواد الناس وجماهيرهم المتردية  
فى الخطايا . فلدى ملتون الشاعر مؤلف « كوموس »  
لا يكون الصفوة المختارة الا قلة قليلة ، كما كان  
الشأن عند أتباع « كلفين » فالملك الحارس  
لا يحرس ولا يرأى بعنايته فى هذه المسرحية الشعرية  
الا أنقياء القلوب دون الاشرار وأنصاف الصالحين  
وما من شك أن معظم من شهدوا هذه المسرحية  
قد شعروا - ان هم أحسنوا الفهم - أنهم  
مستبعدون من زمرة الأخيار الأصفياء !.

وملتون فى هذه الفترة من شبابه ، حتى  
الثلاثين أو بعيدا قليلا ، كان لم يزل سليل عصر  
النهضة وسماته ظاهرة فى أعماله ، واضحة فى  
شغفه بالجمال وتجريره اياه فى خشوع الوثنى  
القديم ..

وقد اندمج بعد ذلك فى معترك السياسة  
بكثير من النثر ، ولم يكتب فى تلك المدة الا القليل  
من المقطعات الشعرية ، الى أن انتهت المرحلة  
النزالية السياسية بعودة الملكية وصار رهين  
محبيه : محبس العزلة عن السلطان فى عهد  
مناوىء لمبادئه ومحبس العمى .

وفى هذه الهدأة المتفرغة للفن والثقافة كتب  
ملتون أعماله الثلاثة الكبرى . ثمرات فترة نضجه  
الرائع ، وهى الفردوس المفقود ( وقد نشر سنة  
١٦٦٧ ) والفردوس المستعاد وشمشون الجبار  
« وقد نشر معا فى سنة ١٦٧١ » فاذا بملتون  
آخر ، له وجه جديد غير معهود من قبل يتبدى  
للناس ، ويتربع على القمة بين الخالدين !

يتقبل التاريخ المروى في التوراة تقبل التسليم بصحته وقداسته . بيد أنه يعيد روايته باعتباره ممثلاً لثقافة عصره ومعرفة أحوال زمنه وبأسلوب درامى . وكان من نتيجة ذلك أنه قام بعملية « اسقاط » لذاته ومشاعره ومعلوماته وتطلعاته وثقافته على الشخصيات التى صورها وأبرزها فى ملحمة ، سواء فى ذلك المخلوقات الآدمية البدائية والكائنات فوق البشرية ، السماوى منها وغير السماوى .

وكانت النتيجة العجيبة قيام صراع متصل بين إيمانه وطبيعته مما أدى بالقصيدة الى الانصراف عن هدفها والى توزيع التعاطف بين أشخاصها رغم ارادة الشاعر ونيتة الأصلية .

والغزى الاخلاقى الذى يستخلص من سفر التكوين فى التوراة وجوب الاذعان لمشيئة الخالق سبحانه ، وان عصيانه خطيئة . ولكن ملتون الذى نظم « الفردوس المفقود » ليؤكد هذا الغزى كان مستقل التفكير والسلوك . بل لقد مضى الى أكثر من ذلك فى تأييد موقف الاستقلال الفردى فنادى بالتمرد على سيطرة الكهنة ، بل وسيطرة الملك نفسه ، وأطرى بحرارة الحكم باعدام الملك ومجد قاتليه . ومعنى هذا انه دون ارادته . كان يمكنون نفسه متعاطفا مع الشيطان فى ملحمة ، فالشيطان هو المتمرد الأعظم على السلطة العليا وعدو الرحمن المبين . وبتقوى تكاد تكون آلية تغنى ملتون من شفتيه بمخامد الطاعة والاذعان ولكنه بسويدها فؤاده تغنى بأمجاد الحرية وعظمة التمرد على القيد والاصرار على الاستقلال فى الرأى والعمل ! وبذلك كان حتما لامناص منه أن يضع ملتون - وهو لا يدري - أعظم وأعمق جوانب ذاته فى شخصية الشيطان بأنفته وكبريائه ووعورة مزاجه .

كانت محنته الخاصة - فى زواجه ثم عماء - ومحنته العامة فى قضية بلاده وأمته والدفاع عن حريتهما ضد الطغيان والتعصب ، ومشاركته فى عمليات التطهر والتنطس ونشر الدعوة اليهما .. كل ذلك جعل مزاجه العقلى يتجه الى الجدل وينطوى دائما على افتراض الصراع والتقابل الثنائى بين الشئ وضده ، وصار بطبعه النزالى المتجهم يتنكر للعدو الذى سادت أشعاره فى صباه ، ويرى فى اطراد القافية زينة ينبوعها طبعه ، وصار ينحو الى موسيقى أشد خشونة وأخفى اتساقا تعتمد كل الاعتماد على الايقاع ، ولذا لم يكتب فى سنوات نضجه شيئا غير الشعر المرسل ، وطرح وراء ظهره مع شبابه المطوى الناضر ألحان الغناء والأهازيج والمقطعات والريفات والموضوعات الخفيفة . وبذلك تخلص الشاعر الأعمى من سمات عصر النهضة التى رأيناها واضحة فى أسلوب شبابه وترك موضوعات الفن الى موضوعات الدين وحدها فتغنى بالخلق وسقوط الملائكة وسقوط الانسان وغزو المسيح للجنة كى يرثها الصالحون من البشر ، وحدثنا عن تضحيات شمشون الذى مات طائما مختارا عندما تحقق أن موته سيجرمعه موت أعداء بلاده وأمته .

ونخص بالحديث الفردوس المفقود ، وهو أهم أعمال ملتون . ويبت القصيد من هذه الدراسة ..

الفردوس المفقود ثمرة تأمل طويل لهذا المتطهر ( البيوريتانى ) فى صفحات الكتاب المقدس وأسفاره مصورا بالشعر المرسل الفخم تلك الرؤى التى أثارها لديه هذه التأملات ، غير تارك أيما شئ يتوسط بينه وبين الكتاب المقدس ، وبذلك سمح لنفسه وأتاح لها الحرية الكاملة فى تأويله ، ولكن فى اطار الايمان الكامل بما ورد فيه . فهو

لقد رأى ملتون من واجبه ، وهو المؤمن الصادق ، أن ينظم ملحمة « الفردوس المفقود » ليبرر طرق الرب أمام البشر ، ولكنه خرج فنياً بنتيجة أخرى لأن هذه الغاية المنشودة لم تتجاوب مع نوازع قلبه ذات المسارب العميقة التي حفرتها تجربة حياته النضالية والنزالية ووجدت صدى وهوى من طبيعة التفرد لديه . وانا لنراه في هذه الملحمة الهائلة يحاول ذلك بالخطب البليغة والحجج الدقيقة بعضها مستقيم وبعضها الآخر منطو على مغالطات . ولا ترتفع هذه الجوانب من القصيدة الى المستوى الأعلى ، فالعنصر الشخصي الداتى فيها قليل ، وقصاراها أنها جهد تلميذ أحسن الأخذ عن اللاهوتيين القدامى والمحدثين . بل لقد أثقل هذا الجانب قصيدته بالمجادلات الفقهية عن سابق علم الله وعن كنه حرية الارادة البشرية في اطار علم الله السابق وسالف تقديره لأفعال الخلق . وهى مباحث ينوء بها أى عمل فنى ولا مراء .

وأدعى للتناقض والاحساس بعدم الارتياح أن تأتى هذه المجادلات الدقيقة على لسان كائنين بدائين مثل آدم وحواء يتسوقع المرء أن تكون فعالهما ثمرة رغبات وأحاسيس مباشرة مهتدين بالغبزة الغفل وبواعثها الساذجة ، فكيف ومن أين لهما استخدام أنواع القياس بهذه البراعة الارسطية والمدرسية (البيكونية) وهكذا صارت الملحمة مسرحاً لأراء عصر ملتون ومعسكرات الفسيفسك فيه على تعدد مستويات الثقافة ووجهات النظر ، مما خرج بالجو الاسطورى عن مبناءه الحقيقي - على حد تعبير الناقد الفرنسى العظيم «تين» في حديثه على الفردوس المفقود معتمداً على هذه المفارقة في بيان أوجه السخف فيها بشئ كثير من المبالغة.

والحقيقة أن المخيلة الخلاقة - الشكسبيرية مثلاً - التى تخرج المرء من ذات نفسه واطار عصره ومكونات ثقافته ليتدفع أو يتصور كائنات أخرى غريبة عنه كل الغرابة ، لم تكن من بين مواهب ملتون الذى كان شديد التركيز فى ذاته ومشكلاته الا أنه كان قادراً على التصور المتراعى الآفاق ولكن قياساً على ذاته لامباينا لها فى الصميم .

وبهذه القدرة على التصور البعيد الآفاق الشمولى النظرة تتميز صورته من الفردوس المفقود ، وتتمايز عن صور داتى مثلاً .. وكثيراً ما وضع الدارسون جحيم كل منهما موضع المقارنة . فإذا جحيم داتى مكون من جزئيات كثيرة التفصيلات ، أما جحيم ملتون فهائل بصورته الكلية التى تطلق الخيال ولا تقيد ، وبذلك كان أثره فى النفس أهول من جحيم داتى مراراً كثيرة .. أما صورة خلق العالم عند ملتون فلا تقل عن صورة جحيمه روعة وعظمة . فقد استطاع بمخيلته القوية أن يجعل نصوص سفر التكوين تنبض بالحياة التى تكاد ترى بالعيان وتلمسها اليدان .

أما وصف الجنة - جنة عدن - فقد قال بعض الناعين على ملتون انه أشبه بوصف حديقة انجليزية مترامية من حدائق قصور الريف . وهذه المفارقة بين براعة وصف جهنم وتخلقه عن ذلك المستوى فى وصف الجنة أن وصف الجحيم نتاج تخيل لا أصل له من معطيات الحسن المألوفة فى الدنيا ومن هنا جاء الابتكار الذى لا حدود له ولا قيود . أما وصفه الجنة فله بالضرورة أصل محسوس فى الدنيا ، والمثل الأعلى لكل بستان أو حديقة لا بد أن يكون نابعاً من تخيله عن مألوف الشخص فى الواقع . ومع هذا كله فجنة ملتون من أبدع الأوصاف الشعرية الحية وقد غنى والحق يقال بتزيينها بكل مبتكر

من بهارج الزينة وأعاجيبها الآخذة بالألباب ، مما يجعل جنته من أبدع أحلام البشر المحبين للطبيعة.

وقد نقل ملتون الى هذه الجنة مأساة الضمير والوجدان ، وصور الانسان فيها حائرا مترددا بين الخير والشر معرضا للغواية مشفيا على السقوط . وقد أمدته التوراة بعناصر هذه المأساة التي خبرها في حياته . أليست الطبيعة قد نصبت له شراكها في فتنة المرأة وأوشكت بذلك أن تدمر حياته تدميرا ؟ لقد تزوج وهو في الخامسة والثلاثين فتاة ملكية العقيدة متعصبة أشد التعصب ، ثم هجرته هذه الزوجة بعد ذلك فانبرى في غضب شديد يطالب بسن تشريع يبيح الطلاق . ولم تستطع المراتان اللتان تزوج فيهما بعد ذلك أن تمحوا بحلاوة التوفيق والهناء مرارة نفسه وسخطه الجامح . فظل على اعتقاده أن الخطر الأكبر على روح الرجل كامن في المرأة ، وهو خطر هائل يستمد وباله وجسامته من شدة قابلية الرجل وحساسيته للحب . وبذلك أعاد النظر بما يقرب الرأي السائد في تقديس المرأة وتزيينها والتغنى بطهرها ورقتها وسمو مشاعرها . وكان هذا الرأي سائدا منذ العصور الوسطى ، وفي آداب الفرسان ، وبه تغنى الشعراء جميعا من قبله .. حتى لقد صوروا المرأة أنبل بطبيعتها من أن تطيق رغبات الرجل الجسدية ، فهي مخلوق ملائكى أثيرى لا يناسبه إلا الحب الافلاطونى تجفو عن الجسد وإن لم يجف الجسد عنها !..

وشتان هذا التصور السائد حينذاك وتصور ملتون ! فالمرأة عنده أقل من الرجل . مخلوق ناقص . مخلوق خطر مالم يحكم الرجل السيطرة عليها بحيث يسد منافذ شرها !

ومن وحى تجربته الأليمة وجد المداد الذى

صور به قصة حواء أم البشرية مع آدم ! فحواء ملتون فاتنة نزقة كثيرة النزوات والميوعة والانحراف عاجزة عن التفكير السديد ، وفريسة سهلة جدا للمغالطات وأحاييل العقلة ! ومن واجب الرجل أمام كل حواء ألا يتطامن لها ، بل يشعرها بسلطانه عليها ويصر على هذه المكانة بلا هوادة ، ولم يكن بلاء آدم واثمه الويل الا ثمرة تراخيه وتدليله حواء .

ويتمرد ملتون على الاعتقاد السائد بتفضيل البكارة العذرية على الزواج ، فالحب الزوجى الذى يجعل من الرجل والمرأة جسدا واحدا وروحا واحدا هو المثل الأعلى للحب عنده وفي اطار هذا الحب الزوجى يرى الفضيلة الكبرى للرجل والمرأة معا وسعادتهما العظمى أيضا . وهو حب بعيد عن النقيضين على السواء : الفجور البهيمى والرهبانية أو الافلاطونية .

#### ٣ - الفردوس المفقود

وقصة الفردوس المفقود هى قصة خلق آدم وحواء وسقوطهما كما ترويها التوراة فى سفر التكوين ، وخلاصتها توشك أن تكون تكريرا معادا بلا زيادة ولا نقصان .. ولذلك فالأوفى بالغرض من هذه الدراسة أن تتبع مشاهد القصة فى شذرات مختارة من ملحمة ملتون تفى بالغاية من التعريف بالمضمون ومن إيراد النماذج بنصوصها الكاشفة لخصائص الأسلوب الفنى فى آن واحد :

✽ تبدأ الملحمة بدعوة يوجهها الشاعر الى عرائس الفن السماوية أن ترشده وتلهمه فى صدد :

« أول عصيان بدر من البشر وثمره تلك الشجرة المحرمة التى جلب مذاقها القاتل لعنة الموت

على العالم ، وكل ما كان من ابتلائنا بفقدان جنة عدن ..

« ألا خبرينا - فالسما في علاها لانخفي عن ناظريك شيئا ولا الجحيم في مهاويها - ما الذي حدا بجدينا الأولين وقد كانا في رحاب النعيم ترعاها السماء بأحسن الرعاية والتكريم أن يهبطا فيسقطا من الحظوة الالهية بمخالفتها تحذيره الأوحد لهما ؟ من كان أول من أغواهما ليقدما على ذلك التمرد المشؤم ؟

« انه الافعوان الجهنمي ، فهو الذي استشار لواعج عذره زناد الجسد والانتقام فخدع أم البشرية .. وخبرينا كيف دفعت به كبرياؤه الى ما استوجب طرده من السماء ومعه كل أجناده من الملائكة المتمردين ، فصاح به صوت العلى القادر الجبار : الى مهاوى الهلاك التي ليس لها قرار الى شواطئ جهنم وسعيرها مكبلا بأغلال لافكاك منها ، جزاء وفاقا لما اجترأت عليه من تحدى ذى الجلال والانعام !

« ولكن الشيطان لا يأس ، ويجمع اجناده ويقوم فيهم ذات وقت خطيبا في كبرياء لاتعترف بالهزيمة ، ويستنهض عزائمهم :

« ان الذى يتربع عاهلا في السماء لم يزل حتى الآن مستقرا على عرشه مؤيدا بسعته القديمة وبالاذعان وراسخ العادة .. ولكننا نعرف مدى بأسه ، وبأسنا أيضا معروف لنا .. ولم يزل أمامنا أن نحقق أفضل جانب من غاياتنا .. وذلك الجانب الأفضل أن نعمل بخطة تامة الاحكام فنصل بالخديعة والختل الى ما لم نصل اليه قدما بالعنف والبطش ! وبذلك يعرف قى خاتمة المطاف على

كل حال أن من يقهر خصمه بالقوة الغاشمة فحسب لم يقهر منه في الحقيقة الا نصفه !

« وفيما هو يتكلم أيد أقواله بملايين السيوف خرجت من أفخاذ اجناده فأضاء لمعانها ما حولها من الجحيم ، وارتفع صياحهم وقمعقعوا بأسلحتهم في ضراوة على دروعهم الرثانة ، معلنين تحديهم لمملكة السماء»

« وعقد أولياء الشيطان مؤتمرهم الكبير ليتشاوروا فيما يصنعون للانتصار على الرحمن وتخريب مملكة السماء الى أن استقر رأيهم على مهاجمتها من أضعف نقطة فيها وهي الخليقة الجديدة الانسان .. والى الجنة يرقى ابليس متسللا ويستعرض في فكره ووصفه جميع مخلوقات الحياة العجيبة الى أن يأتي ذكر الانسان ، ذكر آدم وحواء في نعيم الفردوس الأعلى :

« هاهما مخلوقان أنبل سائر المخلوقات هناك بكثير من حيث الهيئة: منتصبه قامتها في استقامة .. فيهما مجد فطري، وعريهما مهيب في جلاله وجماله ... يبدوان سيدين على كل ماحولهما. أما هو فمجمول للتأمل والبأس. وأما هي فمجمولة للنعومة والرقة والرشاقة واللفظ الجذاب ! هـو مجمول لله فحسب ، وهي مجمولة لله من خلاله .. وهكذا مرا بن يدا في يد ، فاذا هما أحب وأحلى زوجين من المخلوقات جمعت بينهما رابطة الحب .. أما هو فآدم أقرب أبناء سلالة الى الله فهو صنيعه يده مباشرة . وأما هي فأجمل بنات أحشائها : حواء !

« ويتخذ الشيطان صورة أكثر من حيوان من حيوانات الجنة كي يتاح له الاقتراب منهما وسماع حديثهما ونجوى سرهما ، فيكتشف من أقوال آدم أن التحريم الأوحد الذى قطعه الله عليهما

✽ وخاطبها الافعوان بلسان آدمى ، فاستولى على مسامعها بالثناء والتملق .. وتعجب حواء لأمره وتعجب به ، وتسأله يتفوه حيوان بلغة البشر ، فأجابها ان ذلك تسنى له بعد أن أكل من ثمرات شجرة معينة ، وبعد أكلها أوحى اليه أن يتوجه الى حواء بالعبادة لأنها ملكة المخلوقات طرا ! ولما طلبت منه أن يرشدها الى تلك الشجرة قادها الى الشجرة المحرمة ، ففزعت . وضحك الشيطان ساخرا من مخاوفها قائلا :

« يامليكة الكون ! لاتصدقى تلك التهديدات الصارمة بالموت . لن تموتى ! فكيف تموتين ؟ أبالثمرة ؟ حاشا ! بل ستمنحك حياة بالمعرفة . أريد من يتوعدك ؟ انظرى الى فقد لمست الثمرة المحرمة وتذوقتها وهأنذا حى وقد زادت حياتى عمقا واتساعا بتطلى الى أسى مما قدر لى ! أفهل تغلق أمام الانسان أبواب فتحت للحيوان ؟ ان الله لايمكن أن يعاقبك على ذلك العمل الذى ينافى العدل . ومدى يدك ايتها الالهة البشرية وتذوقى منها ماشئت ! »

✽ وأخذت حواء تحدث نفسها بما سمعته من الأفعوان :

« قيل لنا اننا يوم نأكل من هذه الثمرة الجميلة سيقضى علينا بالموت ! أفهل مات الأفعوان ؟ لقد أكل منها وعاش ، واكتسب معرفة وصار يحذق الكلام والتفكير والتمييز والنقاش ، وهو الذى كان قبل ذلك من العجماوات عقلا ولسانا . أفهل لنا وحدنا وجدت عقوبة الموت ؟ أم علينا وحدنا حرمت هذه الثمرة المباحة للبهائم والأوابد ؟ ها هنا تنمو هذه الشجرة ، وفى ثمرتها شفاء كل داء وهى مليحة فى العين شهية تنادى الأكلين ، وتفىء على أكلها الحكمة وفصل الخطاب . فما يمنعنى

الاقتراب من شجرة المعرفة والأكل من ثمراتها أما حواء فكان حديثها كله عن جمالها ، وكيف نظرت أول ما برزت للوجود الى صورتها فى صفحة غدير من غدران الجنة فرأت نفسها أجمل الخلق .. أجمل من آدم نفسه ، الى أن اقترب منها آدم : « وأمسكت يدك الحانية بيدي ، واستسلمت .. ! ومن ذلك الحين أدركت كيف يتفوق اللطف والحكمة الصادرة عن الرجل على جمال الشكل ، وعرفت أن الحكمة وحدها هى المتفردة بالجمال الحق !.. »

✽ ويظهر الملك رفائيل ويجرى بينه وبين آدم حديث عن عصيان ابليس يعجب له آدم جدا ، والملك يحذره من عصيان الله فيكون مصيره كمصير ابليس ويترد من الجنة وتحل لعنة الموت على الجنس البشرى كله . ويرى تعلقه الشديد بحواء فيحذره من الافراط فى الشغف بها فيؤثر ذلك على حصافته وحزمه ويجر الويلات عليه وعليها وعلى سلالتهما جمعا .

ويستهنز ابليس فرصة انشغال رفائيل بذلك الحديث ويتوارى فى مكنن حتى اذا كان اليوم التالى سمع حواء تطلب من آدم أن تعمل بعيدا عنه ، لأن قربها منه يشغله عن عمله ويشغلها بما يكون بينهما من نظرات وابتنامات ، وعلى مضض يتركها آدم تبتعد عنه الى خيمة كثيرة الشجر تجمع من ثمارها ، وهنا لحق بها الشيطان فى ذلك الاطار الرائع من جمال الطبيعة ، فاتخذ صورة الافعوان . وكان الافعوان فى الجنة لايزحف على بطنه بل يسير قائما وله جمال فتان :

« كان له عنق متألق من الذهب الضارب الى الاخضرار ، قائما منتصبا فى رشاقة حلقات جسده التى تسير فوق الأعشاب متهادية فى جمال يأخذ بالألباب .. »

أن أمد يدي اذن وأطعم من مناعمها الروح والبدن معا ؟ .. ومدت يدها الرعاء في ساعة الشؤم تلك الى الشجرة فاقتطفتها وأكلت منها ، ولذا الافعوان الغادر بالفرار الى جوف أجمة لقاء ..»

✽ وذهبت نشوة العمل المندفع ، وشرعت حواء تفكر فيما أقدمت عليه وتتساءل ماذا سيكون تأثير فعلتها على آدم :

« وكيف سأبدو لآدم ؟ أخبره بما طرأ على من تغير ؟ ولكن ماذا لو أن الله رآني ونزلت بي عقوبة الموت ؟ سأفنى وأصير الى العدم ويتزوج آدم حواء أخرى ويعيش هائلا ! وهذا لن يكون ما استطعت أن أحول دونه ! الرأي الحازم اذن أن أحتال على آدم حتى يشاركني فعلتي ، ويأكل كما أأكل ، ليشاركني مصيري من بؤسى أو نعيم ! » وهكذا كان أول ماتعلمته حواء من المعرفة الحياة والمكر !

✽ وما ان عرف آدم منها ما صنعت حتى وقف شاحبا مذهولا ، وكان قد قطف لها عقدا من ورد الجنة فسقط من يده وذبل لساعته من شدة غضبه وحزنه ، وقال لها :

« يا أجمل مخلوق ! يا آخر صنائع الله وابدعها ! يا من كمل فيها كل ماتصوره الفكر والنظر ! أيتها المقدسة الطيبة الحسنة الرقيقة ! كيف أضعت نفسك وأضعتني معك بدسيسة من عدو خادع مجهول هكذا على حين غرة ؟ نعم أضعتني معك ، لأنه لا سبيل لي الا الموت معك ، فكيف لي أن أعيش بدونك ؟ »

✽ وانصرف آدم بعد قليل الى الترفيه عنها بعد أن رآها دامعة العين :

« وعسى الله الا يؤاخذك بما صنعت ، فما أخاله يرضى أن يفنى أجمل مخلوقاته بهفوة واحدة في لحظة طيش .. ثم اني اخترت طريقى بلا رجعة حيث تصيرين أصير ، فان كنت ميتة فما أطيب نفسي بالموت معك ، والموت معك كالحياة ! فنحن واحد ولسنا بعد اثنين ! »

وبكت حواء سرورا بحبه وعاقبته وأتته بشجرة الشجرة المشئومة وأطعمته منها ، فانكشفت لهما مناعم الجسد المتوقدة ، واستسلما لنداء الشهوة الاولى ولما أفاقا أدركا عريهما وأصابهما الخزي فخطفا من أوراق شجر الجنة ليسترا عورتيهما وأصابهما ندم شديد وأخذ ينحى على حواء باللائمة ويرق لهما الله فلا يقضى عليهما بالموت فورا ، بل يكتفى بطردهما الى الأرض حيث يعمرانها ، ويكون الموت أجلا مكتوبا وقدرًا محتوما في ميقات يعلم الله وحده متى يحين ، ويكتب عليهما وعلى ذريتهما الدأب والعمل والألم ضريبة ذلك الأجل من الوجود الأرضي .

وبكت حواء لفراق الفردوس أحر البكاء ، ولكن لاراد لقضاء الله :

« وهبط بهما الملك الموكل بهما الى رحاب الأرض من جهة المشرق ثم اختفى .. ووقف جدانا الأولان ينظران بحسرة الى موضع فردوسهما المفقود وذرفا الدمع السخين ، ثم لم يلبثا أن جفقا عبرتهما ، وقد أبصرا الدنيا بأسرها بين يديهما ، يختاران منها ما يشاءان للاخلاد الى الراحة ، وقد وعدهما الله في كامل رحمته ان يسدد خطاهما ويكلاهما بعنايته الصمدانية .. وهكذا شرعا يدا في يد يضربان معا في مناكبهما ... »